أثر المدرسة المصرية في الثقافة

للأستاذ ثروت أباظة

« تتمة »

وهكذا يدخل المدرس إلى الفصل وقد كتب عناوين درسه باللون الأحمر والتاريخ باللون الأزرق . ثم هو يلقي ما تقرر عليه أن يلقيه ، ثم هو يسأل فيثور ويغضب أو يسر فيمدح

لا يهمه فهم التلاميذ الدرس أو لم يفهموه .. فلقد أدى ما أرادت وزارة المعارف أن يكون واجبه ، أما الفهم وعدمه فلا شأن له ، فإنما يختص بهذا — في رأيه — عقلية التلميذ فيطمئن نفسه أن الذكي منهم سيفهم والغبي ان يستطيع أن يفهم وإن رزق صبر أيوب

وواضح أن هذا الرأي إنما هو مخادعة للنفس ، فقد استقرت معظم الآراء على أن الغباء المطلق غير موجود أو يكاد ينعدم ، فلو فهم الأستاذ هذا لحاول أن يتعرف الناحية الذكية في تلميذه فيعالجها ، ولكن هذا مرة أخرى سيعود به إلى ضميره ليحاول أن يرضيه ، ومرة أخرى سيغاضبه المفتش والناظر فيغاضب عيشه وحياته

والطامة الكبرى أن يشعر المدرس أن المادة التي يدرسها لا تتلاءم وميول بعض التلاميذ ، ولا شك أنه في هذه الحالة سيدير بذهنه أن الأمر إذا استقر على عدم ميل التلاميذ إلى مادته ونفورهم منها قد يكون مجلبة للشر موجها إليه ، فإن الإدارة لا تفهم معنى ملاءمة أو عدمها بالنسبة للتلاميذ . وإنما تفهم أن مدرسا ما قد أخفق . فأنجح تلاميذه أو أن آخر قد أساء فأسقط ، وإنما تبعا لأوامر وزارة المعارف نمذره إذا غضب من هؤلاء التلاميذ . وتجلى غضبه في الثورة بهم والإساءة إليهم حتى لا يضطر التلاميذ الذين لا يميلون إلى هذه المواد إلى حفظها فهموها أو لم يفهموها . فإنما أمنياتهم لا تمتد إلى أكثر من رضاء المدرس عليهم . وإذا شاء سوء حظ تلميذ ما ألا يحفظ إلا ما يفهم . فمصيره لا شك أن يعبر بقسطه من إخوانه البيقاوات وأستاذه الثائر . فتنعقد العقدة في نفسه . ويعتقد أنه شخص فاشل في الحياة وإن لم يتداركه الله برحمته . فمصيره الفشل في كل أمر يتولاه . ولو قد فهم الأستاذ كيف يعامل هذه المجينة اللدنة في يده . وكيف يشكلها صحيحة مبرأة من العقد . ولو عرف الأستاذ كيف تتطلس ميول تلميذه حتى يعرفها . ثم يوجهها إلى الطريق القويم . لو عرف الأستاذ لانبثق لنا جيل مقبل على عمله حتى وإن كان فاشلا في الدراسة . فما الدراسة بدليل النجاح في الحياة ، وإنما هي فرع من فروع هذا النجاح ، وليس حتما أن يفشل في الحياة كل كاره لناحية من نواحي هذه الحياة . وأن المستقرئ لحيوات العظماء في الشرق والغرب يدرك كم نبغ في الفنون والعلم أناس فشلوا في المدرسة . ومن الناحية الأخرى ليس حتما أن ينجح في الحياة كل ناجح في المدرسة ، وهذا قول ما أظنني في حاجة إلى التدليل عليه . فالشواهد أكثر من أن تعد . رحم الله شوقي الخالد حين يقول

وكم منجب في ناقق الدروس ناقق الحياة فلم ينجب

لا شك أن في أخذ التلاميذ بهذه الشدة في التدريس كبتا لأرواحهم الحرة المرحة . فهم لا يشبعون رغباتهم من ناحية الميل الثقافي وهم لا ينطلقون إلى اللعب إلا وعلى أكتافهم واجبات من المدرسة ، وفي آذانهم توجيه آبائهم ، وسخرية أساتذهم ..

وهذه الهيئات الإسلامية كانت تعمل على تحرير إندونيسيا فلما استقلت إندونيسيا أخذت تعمل على الاحتفاظ بهذا الاستقلال وصيانته وإعزاز كلمة الدين الاسلامي

وأهم الأحزاب بعد ذلك الحزب الوطني الاندونيسي وكان ينتمي إليه الرئيس سوكارنو قبل تولي رئاسة الجمهورية

أبو الفتوح عطيفة

والضحك غريزة لابد يتنفس عنها المرء . وما دامت الحياة المدرسية لا تفسح له المتنفس مبرأ من الشوائب . فهم معذورون إذا شاكسوا الأستاذ فى أثناء الدرس وعذرهم لا يبرر عملهم . إذ أنه أمر لا يجب السكوت عليه، لأنه يعودهم ألا يأخذوا من الحياة ناحية جدية، ولكن الطريقة التى يعاقبون بها تزيدهم إصراراً على الضلال ، وما كان الضرب أو الطرد بوسيلة ناجحة فى يوم من الأيام لأنها إذا أصلحت الظهر ؛ فهى لم تصل مطلقا إلى الجوهر ، وإن وصلت فبعقدة نفسية أخرى من الخوف فتزداد المشاكل ، وتصبح نفسية الطالب أشبه شئ بشبكة الصياد لا تحل إلا إذا قطعت

قد يظن البعض أنه وإن كانت المدرسة ملومة فى هذا فالبيت ملوم معها ؛ لأن أكثر الآباء يبنون معاملتهم لأولادهم على الشهادات التى تصل إليهم من مدارسهم . والشهادات كما بينت لا تدل على حقيقة عقلية التلميذ ؛ وإنما هى فى الأغلب تدل على أن هذا التلميذ يجيد الحفظ ، وهذا الآخر لا يجيده . والأب إزاء ما يرى فى شهادة ابنه لا يهتم مطلقا بمعرفة العلوم التى يميل إليها ولده ، وتلك الأخرى التى لا يميل إليها فيعالج الأمر بما تقتضيه الأبوة الرحيمة وقواعد التربية الحديثة . بل هو يساوى فيعاقب ابنه إن لم يضربه ؛ وإن غلا فى العطف عليه أحضر له مدرسا خصوصيا يلقى إليه التلميذ بجهله راجيا منه أن يزيله . قد يظن البعض أن الآباء فى هذا ملومون ؛ ولكنى أعتقد أن لهم فيما يفعلون عذرا . فإنما أمامهم أن يتسلح أولادهم بالشهادة يجابهون بها الزمان . فإن أحضروا المدرسين يقومون بهم ضعف أولادهم، وإن حاربوا سقوطهم بكل الوسائل التى تصل إليها أيديهم فإنما هم آباء يزهيهم أن يقال عن أبنائهم أنهم نالوا الشهادة، ولا يهمهم من بعد تثقف هؤلاء الأبناء أم لم يتثقفوا ، ولا بد لنا أيضا أن نضع عقلية الآباء موضع تقدير ؛ فإن الكثيرين منهم لم يتعلموا ، فإن كنا نعذر المتعلمين منهم إذا هم أخذوا أبناءهم بالشدة دون النظر إلى ميولهم ، فإنه من باب أولى حتم علينا ألا نأخذ على غير المتعلمين معاملتهم لأبنائهم

بين أوامر وزارة المعارف وبين تنفيذ المدرسين لها ، وبين شدة الآباء أو جهلهم لا يمكن للطلاب أن ينالوا ثقافة من المدارس الابتدائية والثانوية. واعتقادى أن الميل إلى التثقيف إذا لم يتكون فى هاتين المرحلتين فالأمل فى تكوينه بعد ضعيف. ونظرية الضغط الذى يولد الانفجار قديمة معروفة، ولاشك أنكم قد لمستم مقدار الضغط فى حياة التلاميذ فى المدارس الابتدائية والثانوية ، حيث يصبحون كالآلات تتحرك إذا تحركت تبعا لتلك الإرادات الثلاث من وزارة المعارف والمدرس والأب . وهى تيارات متعارضة . فوزارة المعارف تريد أوامرها أن تنفذ والمدرس يريد أن ينتهى من المقرر أيا يكون ذلك الانتهاء ؛ والوالد يريد لابنه أن ينجح أيا كان ذلك النجاح . وهكذا تتعارض الإرادات فى اتجاهات لها شتى ؛ ولكنها جميعا تلتقى على ألا ينال التلميذ ثقافة حقيقية وتتضافر على كبت ميوله الثقافية . وينعقد إجماعها على ألا يصيب التلميذ قسطا من الاسترواح النفسى؛ بل هو دائما بين عقاب وتوبيخ وسوء معاملة، وهو كالآلة أمام هذه الإرادات ، تسيرها كل إرادة على حسب هواها ، فيزيد الضغط .. فما ينفلت التلميذ من التوجيهية إلى الجامعة حتى يحدث الانفجار .. انفجار ضخم .. فينتقم من التلميذ من سنوات فى حياته عكرة مظلمة .. أنه فى الجامعة ولا رقابة ، وخاصة إذا كان فى إحدى الكليات النظرية فإنه هناك لا يرتبط بالجامعة فى شئ إلا فى اسمه يقيد بها . ثم فى تلك المنضدة يجلس إليها فى أوائل الصيف من كل عام حيث يؤدى امتحانه . والصلة بينه وبين أستاذه بعد ذلك مفقودة كالعدم ، فإننا اليوم نلاقى أساتذتنا فنعرفهم ولا يعرفوننا . وهم معذورون ونحن معذورون . والنظام هو المسئول ؛ إذ يستحيل على الأستاذ بالكلية أن يتعرف هذا العدد الهائل الذى يحشد له فى المدرج ، فقد بلغ عدد الطلاب الذين التحقوا بكليات الحقوق فى سنة ما ألف طالب . فإذا أعطى الأستاذ لكل طالب دقيقة فى اليوم أو دقيقة فى الأسبوع فإنه يستحيل عليه أن يتعرفهم جميعا . فإذا كان التعرف يستحيل فكيف يتمكن الطالب من الاتصال بأستاذه صلة تقرب له مناهل التثقيف . والتعمق فى المواد

الحال فى الكلية إذن أن الطالب على نفسه رقيب ، فالأب لا يعرف عن ابنه شيئا ، والأستاذ لا يعرف عن تلميذه شيئا . والطالب لم يتعود الميل إلى الثقافة حتى يحاول أن يثقف نفسه . والمواد التى تدرس له يحفظها قصصا رغم أنفه فى الشهرين الأخيرين من العام فينجح فقط . وإذا لم يتسع له الوقت فبحسبه أن يذاكر نصف المواد ، ويترك النصف الآخر إلى الدور الثانى ، وإن ازداد الوقت ضيقا فليذاكر الأجزاء المهمة من مواد الدور الأول ، ويعتمد على الحظ من بعد الله ، وهكذا لا يتاح للطالب الجامعي أن يدرس حتى المواد المقررة عليه جيدا ، فهو قد أضاع العام فى الانتقام من الأعوام الماضية ويكاد يكون من المقطوع به أن الطالب الجامعى حتى إذا درس هذه المواد فإنها لا تكفيه حتى يقال عنه مثقف

إننى آسف كل الأسف إذ أقرر أن الشهادة لا تعنى مطلقا أن حاملها قد تثقف ، بل أعتقد أن الشهادة قد تقف بالمرء عن التثقيف ، لأن أغلب حامليها يسهم الغرور فيعتقد المتخرج منهم أنه أصاب مالم يصب الأولون والآخرون ، فإن سعى إليه الحظ بوظيفة ما مهما كانت بعيدة عن المؤهلات العلمية اكتفى وحمد الله ، وقبل راحتيه من ظهر لبطن ، ثم نسى ما تعلم فيضيع منه ما كان يجوز أن يصبح أساسا لثقافة معينة إن هو حاولها

أجدنى مضطرا لأن أعقد شبه مقارنة بين هذه الحال وبين الحال فى الغرب حيث يهتم المربون هناك بالشخصية الأدبية منذ بدء تكوينها ، فيرسون الأسس السليمة والطفل مازال فى الرياض ، ولعلكم تدرون أن أساتذة رياض الأطفال هناك هم أعظم الأساتذة تثقيفا ، وأخبرهم بالنفس وتكوينها ، فهم الذين يخلقون العجينة الأولى ويهيئونها لتتداولها بعد ذلك أيدى صناع تتعرف عقليات الطلبة وتتمشى معها ، فيجد الطالب نفسه محاطا بجو اجتماعى صالح لتكوين سليم فى كل مراحل تعليمه ، ومن حوله الأساتذة يهدفون دائما إلى أن يقيموا رجالا قد اكتملت شخصياتهم ، بعيدة عن العقد النفسية ، وإذا كان علماء النفس قد أقاموا تقسيمات ثلاثة من المعرفة والوجدان والنزوع ، فإنهم فى الغرب يولون هذه الأقسام جميعا عنايتهم دون أن تطغى واحدة منها على الأخرى ، فى حين نعنى نحن بالمعرفة فحسب ، فلا نتمكن حتى من نوالها ، وإنك لتجد التعليم هنا يرهب اسم الغرائز ولا يجرؤ على ذكرها ، بينما نجدهم فى الغرب يعترفون بها ثم يعملون السبيل منها ، ويهذبون ويتناولون النزعات المختلفة فيوجهونها التوجيه الصحيح ، بل إن بعض المدارس تعتبرها نقطة البدء فى تكوين الشخصية ، والأساتذة فى كل الأدوار يشركون طلابهم فى تثقيف أنفسهم ، فلا يجعلونهم آلات استقبال فحسب . بل يتدربون معهم حتى يعرفوا ميولهم فينمونها ، ولا يمكن أن يصل الأستاذ إلى هذه المعرفة أو يعتقد أن هذا الجالس أمامه آدمى له عقل يفهم وينتج ، وليس آلة تسجيل تلتقط لتحفظ

إنهم فى الغرب يهتمون بالشخص ليخلقوا منه مثقفا فيخلقوه ، ونهتم نحن بالمواد لنخلق منها أشخاصا فنقتلهم

جرت العادة عند كل مقارنة بيننا وبين الغرب أن نسب أنفسنا لنمدحهم وكم كنت أتوق لغير هذا ، ولكنى أعتقد كما سبق أن قلت . . . أن أولى درجات الثقافة أن يعرف المرء بجهله حتى يسعى إلى العلم ، فلابد لنا أن نعرف مكاننا حتى نسعى إلى ما هو أرفع منه ، ونحمد الله ، فقد علم القائمون بالأمر أين نحن ومدارسنا من الثقافة الحقيقية ، فقاموا يحاولون أن يقربوا بين الناحيتين المتنافرتين

فتألفت لجان تنعقد فى هذه الأيام لتنظر فى المقررات والمناهج وطرق التدريس ، وتحاول أن تزيل عنها الأتربة المتكاثفة وتجلوها موائمة للتربية الحديثة ، ومن بين هذه اللجان تألفت أخريات لوضع الكتب التى تتمشى مع النظم الجديدة المقترحة ، وإلى جانب هذا أنشئت المدارس النموذجية محاولة للتحرر من قيود التقاليد العتيقة ، فأصبح التعليم فيها يهدف إلى أن تطبق التلاميذ ما تعلموه ، وفى بعض العلوم الأخرى نجدهم يقدمون التطبيق على القاعدة العامة

وهكذا راحت هذه الأجنحة من التجديد تريش متحفزة للتحليق ، والنية إن صدقت والعزم إن مضى سامقان بالتعليم المهيض إلى سماوات الثقافة الحقة فتصبح مع هذا الغرب المفيد فى سماء واحدة ، وإن أملنا إلى السماء أقرب بعاض لنا يقرى وأمل لنا مرتقب ، والله من ورائنا هو الهادى وهو المولى ونعم النصير ..»

ثروت أباظة